أغماتيات المعتمد بن عباد

دراسة في الموازنة الشعرية

بقلم : أ.بن منصور أمينة.

إشراف : أ.د/بومدين كروم.

لقد شهد العصر العباسي تطوراً حضاريا ملحوظا عم الحياة الاجتماعية والثقافية و السياسية، ذاق الإنسان في أجوائه طعم الترف ، و انساق وراء الزخرف ، وهو إحساس طال الأدب أيضا ؛ فمالت طائفة من الشعراء إلى العناية بالصورة اللفظية وإثقالها بالمحسنات البديعية وتعميق معانيها بالغموض والتكّلف، وعلى رأس هذه الطائفة أبو تمام ومسلم بن الوليد وغيرهما ممن صنفهم النقاد ضمن مدرسة أنصار الصنعة ، على حين بقيت طائفة أخرى تحذو حذو الأوائل في العناية بعذوبة العبارة وبساطة العرض مع الإقلال من الزخرف اللفظي، و قد مثل هذه الطائفة البحتري وأبو العتاهية و غيرهما ،و هؤلاء معدودون عند النقاد في زمرة أنصار الطبع.

و طبيعي و الحال تلك أن تكون هناك محاولات للترجيح بين المدرستين و المفاضلة بينهما ، فظهر ما يعرف بالموازنة ، و لعل أول من سبق إلى هذا المنهج في الدراسات الأدبية ، الآمدي(ت 370هـ) في كتابه : الموازنة بين الطائيين ، الذي كان تلبية لحاجة علمية ملحّة سببها ذلك الصراع الدائر حول مذهب الأوائل .

مع العلم أن الموازنة الشعرية ظاهرة نقدية قديمة بدأت إرهاصاتها الأولى منذ النابغة الذبياني ، غير أنها ظلت مجرد محاولات لم تر النور بشكل منهجي قبل الآمدي الذي قعّد

للموازنة بين الشعراء ، و بناها على قواعد نقدية منهجية حاول تخليصها من الأحكام الذاتية التأثرية.

و نحن إذ نخوض هذا المجال بإجراء موازنة بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد ، فليس من باب المفاضلة بين المشرق و الأندلس فذلك مجال آخر ، و إنما بغرض رصد التشابه الذي وقفنا عليه بين تجربتي الشاعرين اللذين تقاسما معاناة الأسر، حظي أبو فراس عقبها بعناية النقاد و الدارسين الذين أفردوا روملياته بالدراسات المستفيضة ، على حين لم يحظ المعتمد بن عباد بالعناية ذاتها ؛ فأغماتياته لا يكاد يعرفها إلا المضطلع بالأدب الأندلسي.

وإذا كان شعر الحمداني في أسره من فرائد شعره، فإن شعر المعتمد في منفاه من أروع ما نظم ،بل هو الذي كتب له الخلود في قلوب الناس، يقول بطرس البستاني:" لا يعود خلود ابن عباد في الأدب إلى المنظومات التي قالها و هو خافض العيش في نعيم دولته و إنما يعود خلوده إلى ذلك الشعر الوجداني الخالص الذي قاله في نكباته"[1].

و لا يعني هذا الكلام أن المعتمد كان مغمورا أيام سعوده، و لكن شهرته كانت في جوانب أخرى ؛ فهو " صاحب القصص العجيبة و الأفعال الخارقة كيوم الطين..و ابن عمار.."[2]، و هو أيضا بطل الزلاقة ' تلك المعركة التي كانت " من المعارك الفاصلة على غرار اليرموك و القادسية"[3] ؛ فالمعتمد بن عباد كان معروفا بين الناس ملكا على إشبيلية ، يشيدون به حينا و ينقمون عليه حينا آخر، أما شاعريته فلم تكد تظهر وسط بلاطه الذي جمع فيه كبار الشعراء ؛ كابن زيدون و ابن عمار و ابن اللبانة...حتى قيل"ما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع في بابه من أعيان الأدب"[4].

و لعل الدارس لشعر كل من أبي فراس و المعتمد يلحظ شبها بين تجربتيهما في الأسر إلا أنه شبه نسبي، و لعل أول ما يختلف فيه الشاعران طبيعة السجن و السجان ؛ فأبو فراس أسرَه الرومُ و هم أبعد ما يكونون عنه على حين أسر المعتمدَ ابن تاشفين و هو من بني جلدته، فأي المعاناة أكبر؟ لاشك أنها الثانية، زد على هذا أن الحمداني كان يؤمل العودة، أما المعتمد فيئس من الأوبة و كان ألمه مضاعفا " مبعثه التباين بين حياته الماضية و حياته في المنفى، و أساسه الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيشها و البربرية (*****) التي وجد نفسه بين أنيابها"(5).

و بناءا على هذه المعطيات ليس عجبا أن يكون المعتمد " أشد تركيزا شعريا من أبي فراس"(6)، و لتكن هذه المختارات إضاءة لما ذهبنا إليه.

يقول أبو فراس مفتخرا بأجداده:

فَلَم يُخلَق بَنو حَمدان إلا لمَجد أو لبأس أو لجُود (7)

فأجداد الشاعر إنما وجدوا ليكونوا كراما شجعانا، أما المعتمد فيذهب إلى أن الملك لم يعشق إلا أجداده فيقول:

و قديما كلف المُلك بنا و رأى منا شموسا فعشقْ

و قد مضى منا ملوك شُهروا شُهْرة الشمْس تجلّتْ في الأفقْ

نحْن أبناء بني ماء السّماء نحْوَنا تطمَح ألْحاظ الحدق (******) (8)

كانوا ملوكا و لكن قضى ملكهم، و شموسا و لكن أفلت أنوارهم ،

و يقول أبو فراس مفتخرا بإقدامه في الحروب:

و لمّا ثار سيْف الدّين ثرْنا كما هيّجَت آسادا غضَابا

دعَانا و الأسنّة مُشرّعات فكنا عند دعْوته الجَوابا

وكُنا كالسّهام إذا أصَابَت مَراميها فراميها أصَابا[9]

و يقول المعتمد:

وكُنا إذا حَانت لحربٍ فريضَة و نادتْ بأوْقات الصّلاة طبولُ
شهِدنا فكبّرنا فظلتْ سُيوفنا تُصَلي بهامَات العِدى فتطيلُ
سُجود على إثر الرّكوع متابَع هناك بأرواح الكُماة تسيل[10]

فكل منهما أحسن التعبير عن موقفه في الحرب إلا أن المعتمد تفوق على أبي فراس حين جمع بين الصلاة و القتال في صورة رائعة.

و يقول أبو فراس في الرد على من عاتبه لعدم تدبر العواقب:

يقولون لم ينظر عواقبَ أمْره و مثلي مَنْ تجري عليه العواقبُ
ألم يَعلَم الذلان أنّ بني الوغى كذاك سليبٌ بالرّماح و سالب[11]

و يقول المعتمد في الرد على من أشار إليه بالخضوع و الاستسلام:

قالُوا الخُضُوع سياسَة فليبِ ْد منكَ لَهُم خُضُوعُ
و ألذ منْ طعْم الخُضوع على فَمي السّم النّقيعُ
إن يسْلب القوم العدا مُلْكي و تسْلمني الجُمُوعُ
فالقلبُ بيْن ضُلوعه لم تُسْلم القلبَ الضلوعُ
لم أسْتلَبْ شرَف الطبا ع أيُسلَبُ الشرفُ الرّفيع[12]

لقد لام الناس أبا فراس على تسرعه و عدم تدبر أمره ، فأجابهم بأن المرء يساء حينا و يسر حينا ، أما المعتمد فنصح بالاستسلام و تدبرعواقب المقاومة، غير أنه أجاب : إن الملك إن سلب فإن القلب الذي بين الضلوع لا يزال يطلب الموت ويأبى الخضوع.

و يصبر أبو فراس نفسه فيقول:

لِنْ للزمَان وإنْ صَعبْ و إذا تباعد فاقتربْ (13)

أما المعتمد فيدعو إلى القناعة بما كتب في هذه الدنيا، لأن الموت الحقيقي في نظره هو مفارقة الأوطان:

اقنعْ بحظك في دنياك ما كانا وعزّ نفسَك إن فارقتَ أوطانا (14)

و يرثي أبو فراس أمه فيقول:

أيا أمّاه كم همّ طويـل مضَى بك لم يكن منه نَصير

إلى مَنْ أشتكي أو لِمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصّدور(15)

ويرثي المعتمد ولديه اللذين فجع بهما و هما في ريعان الشباب:

تولّيتما و السّن بعد صغيرة و لم تلبث الأيّام أن صَغّرت قدْري

مَعي الأخوات الهَالكات عليكما و أمّكّما الثكلى المضرمّة الصّدر(16)

إن جذوة قلب المعتمد مشتعلة لا تنطفئ، بل هي بركان ثائر مدى الدهر:

و نار برقك تخْبو إثر وقدَتها و نارُ قلْبي تبْقى الدّهر بركانا (17)

و لعل المعتمد و أبا فراس تعادلا في رثائهما ، و لا عجب من ذلك ، فلا يعادل فقدان الأم إلا فقدان الأبناء و العكس؛ فأبو فراس مثلا حين رثى أختا له رثاها بكثير من الصبر و التسليم بخلاف رثائه الأول ، وذلك في قوله:

يُعزّون عنك و أين العَزاء و لكنّها سنة تُستحَب (18)

و من رثاء الأهل و الأحبة إلى رثاء النفس، فأبو فراس رثى نفسه مخاطبا ابنته:

أبُنيّتي لا تحْزني كلّ الأنام إلى ذهـاب

قولي إذا ناديتني و عَييت عن ردّ الجَواب

زين الشباب أبو فرا س لم يُمتّع بالشباب[19]

رثى الشاعر نفسه و هو في وطنه بين أولاده، وعلى الرغم من إظهاره الصبر إلا أنه تمنى لو طال عمره أكثر، و لكن لننظر إلى رثاء المعتمد نفسه مخاطبا قبره الغريب بقوله :

قبر الغريب سَقاك الرّائح الغادي حَقا ظفرتَ بأشلاء ابن عبّاد[20]

فلم تكن أمنية الشاعر البقاء، فهو الذي رد على ابن زهر بعد أن دعا له بذلك قائلا:

دعَالي بالبقاء و كيف يَهوى أسيرٌ يطول به البقاء[21]

و لكن أمنية الشاعر بسيطة و هي أن يزور الناس قبره و يدعون له:

و لاتزال صَلوات الله دائمة على دفينك لا تُحْصى بتعداد[22]

و كان لسان الدين بن الخطيب ممن حققوا للمعتمد رجاءه فزاره و أنشد:

قد زرتُ قبرك عن طوع بأغْمات رأيت ذلك من أولى المُهمّات

لمَ لا أزورك يا أندى الملوك يدا ويا ضياء الليالي المُدلهمات[23]

لقد عاش الشاعران تجربة الأسر و عبرا عنها، غير أن المعتمد عبر عنها بحرقة و مرارة شديدتين، كونه عاش الأسر رفقة أبنائه و زوجته، و رأى ذلهم أمامه و هو لا يقوى على فعل شيء ، فكانت المعاناة مضاعفة ؛ فقد حل العيد و الناس مستبشرون ، أما بناته فكن حافيات تغطي أجسادهن النحيلة أسمال بالية، و قد صور ذلك في أبيات مؤثرة ، فقال:

فيمَا مضى كنتَ بالأعيَاد مسْرورا فساءك العيد في أغمات مأسُورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للنّاس ما يمْلكن قطميرا

بَرزْن نحوك للتّسليم خاشعة أبصَارهُنّ حَسيرات مَكاسيرا

يطأن في الطين و الاقدامُ حافية كأنها لم تطأ مسْكا و كافورا[24]

ففي غمرة أحزانه تذكر يوم الطين الذي مشت فيه اعتماد وبناتها على المسك، والكافور ، غير أن استرجاع الماضي لا يغير من الحاضر شيئا ، إلا أن فيه نوعا من السلو، " فأحسن الأشياء التي تعرف و يتأثر لها...هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها و التألم منها كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة"(25).

فالفرق واضح بين ألم المعتمد يوم العيد، و ألم أبي فراس الذي مرت عليه المناسبة نفسها ، و لكنه عانى وحده و لم تقاسمه المعاناة أسرتُه، و لذلك جاءت أشعاره في ذلك أخف نغمة وأقل تهويلا:

يا عيدُ ما عدْتَ بمحبوب على مُعنّى القلب مكْروبِ
يا عيد قد عدتَ على ناظر عن كل حُسْن فيك مَحْجوبِ
يا وحْشة الدار التي ربّها أصبح في أثواب مربـُوب[26]

فقد تألم أبو فراس لحاله ، أما المعتمد فتألم لحال بناته، فأي الألمين أشد؟ لا شك أنه الثاني.

"و على الجملة فقد كان ابن عباد أيام نعيمه و أيام بؤسه ، نعمة على الأدب بما قاله في وصف مشاعره و بما قاله الأدباء فيه"[27].

و الذي نراه هو أن المعتمد أحق بأن يختم به شعر الملوك ؛ فإذا كان الصاحب بن عباد قد ذهب إلى أن الشعر بدئ بملك و ختم بملك ، يقصد امرئ القيس و أبا فراس[28]، فإن المعتمد أولى منه في ذلك لأنه مارس الملك فعليا، و هو جدير أن يذكر مع كبار الشعراء ، لأنه من القليل الذين نظموا الشعر للشعر، فكان شعره صورة حية لتجربة إنسانية أندلسية صادقة.

الإحالات و الهوامش

(1):أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث: بطرس البستاني–دار الجيل بيروت–1997: 156.

(**): يوم الطين هو ذاك اليوم الذي اشتهت فيه اعتماد المشي على الطين مثل الفلاحين فأمر المعتمد بخلط المسك و الكافور حتى غدا كالطين و مشت عليه.

(***): ابن عمار نديم المعتمد و صديقه و وزيره إلا أن علاقتهما ساءت بعد زمن فقتله المعتمد.

(2):الأندلس بين الحلم و الحقيقة: عبد الله حمادي–دار الهدى– الجزائر 2004: 15.

(****): معركة الزلاقة 479هـ" دحر المسلمون فيها بقيادة يوسف بن تاشفين و المعتمد بن عباد الإسبان بقيادة ألّذنفونش.

(3):الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود: عصام شبارو: 09

(4)تاريخ الوزراء و الكتاب و الشعراء: الفتح بن خاقان .تح مديحة الشرقاوي–مكتبة الثقافة الدينية–ط1 القاهرة 2001: 69.

(*****):الكلمة رد على صاحبها.

(5): تاريخ الفكر الأندلسي: أنخيل جنثاليث بلانثيا–تر: حسين مؤنس ، مكتبة النهضة الدينية –ط1 القاهرة 1955: 102.

(6):الموجز في الأدب العربي و تاريخه–الأدب في المغرب و الأندلس: حنا الفاخوري دار الجيل ط3، بيروت، 1991: 225.

(7): ديوان أبي فراس الحمداني: تح: كرم البستاني– دار صادر بيروت: 97.

(******): المعتمد بن عباد من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء و بذلك كانوا يفخرون(ينظر الحلة السيراء: ابن الأبار–تح: حسين مؤنس–دار المعارف مصر– ط2/1985 :35/2).

(8): ديوان المعتمد بن عباد: تح رضا الحبيب السويسي– الدار التونسية للنشر 1975: 147.

(9): ديوان أبي فراس الحمداني : 15.

(10): ديوان المعتمد: 179–180.

(11): ديوان أبي فراس: 36.

(12): ديوان المعتمد : 150–151.

(13): ديوان أبي فراس: 56

(14): ديوان المعتمد : 192.

(15): ديوان أبي فراس:163

(16): ديوان المعتمد : 163.

(17): نفسه: 166.

(18): ديوان أبي فراس :49.

(19): نفسه : 55.

(20): ديوان المعتمد : 193.

(21):نفسه : 176.

(22): نفسه : 194.

(23): لسان الدين بن الخطيب،حياته و تراثه: محمد عبد الله عنان–مكتبة الخانجي–ط1: القاهرة،1968 : 66.

(24): ديوان المعتمد : 169.

(25): منهاج البلغاء و سراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني– تح: محمد الحبيب بن الخوجة– دار الغرب الإسلامي: ط2 بيروت، 1981: 21.

(26): ديوان أبي فراس:34.

(27): ظهر الإسلام: أحمد أمين– دار الكتب العلمية بيروت لبنان–ط2007/2. 3: 136.

(28): يتيمة الدهر:الثعالبي– مطبعة الصاوي، مصر 1931: 57/1.